

التعليم العربي الإسلامي¹ والثورة الجزائرية - منطقة الشلف² نموذجا -

أ / خالد بلعربي
جامعة سطيف

مقدمة

غزا الفرنسيون الجزائر وفي نيتهم البقاء في هذه الديار إلى أجل غير مسمى وإقامة مجتمع فرنسي بديل عن المجتمع الجزائري، لذا بدأت عملية طمس مكونات الشخصية الجزائرية تأخذ طابعا عاما، فقد شملت قفل المراكز التعليمية الجزائرية وهدم دور العبادة وتحويل بعضها إلى كنائس ومستشفيات، وانتشر المنصرون في طول البلاد وعرضها، وهمهم من وراء ذلك النيل من عقيدة الأمة الجزائرية العربية المسلمة، قصد إحكام السيطرة على المجتمع وتكبيله³.

في ذات الوقت لم يبق لأهل الديار بعد المقاومة المسلحة ملاذ يتحصنون به ضد الغزو الاستيطاني الفرنسي سوى التحصن بالدين الإسلامي.

ومن هنا كان لابد من رفع وتيرة العناية بإنشاء الوسائل التي تكفل لهم تحفيظ القرآن الكريم باعتباره الحصن الذي يصون العقيدة من الخطر الداهم، وانطلق الجزائريون ينشؤون في كل واد وناد مدرسة قرآنية أو زاوية حملت على عاتقها مهمة تعليم النشء وتكون بمثابة الدرع الواقي الذي تتحطم عليه المخططات الاستعمارية.

1 التعليم العربي الإسلامي: نعي به التعليم الحر الذي لا يخضع لبرامج التعليم الاستعمارية، بعضه كان مرتبط بمدارس جمعية العلماء المسلمين، وبعضه الآخر تقليدي.

2 منطقة الشلف: هي الرقعة الجغرافية الممتدة من واد مينا غربا، إلى مدينة جندل شرقا، ومن الشواطئ الجنوبية للمتوسط، إلى السفوح الجنوبية لجبال الونشريس جنوبا، تمتد من الغرب إلى الشرق على مسافة 200 كلم، يعبرها واد الشلف، الذي تنتشر على ضفافه سهول مخصصة، وهي واقعة بين سلسلتين جبليتين واحدة في الشمال تمتد من مستغانم إلى جبال زكار، وأخرى جنوبية تمتد من جبال بني شقران إلى جبال المدية، وتتضمن سلسلة الونشريس. إلا أننا لم نتطرق في هذه العجالة إلى كافة مدارس المنطقة، واقتصرنا على مدارس بحاجة خاصة لأهميتها، مع التذكير أنها ليست الوحيدة من حيث الأهمية إذ أن هناك مدارس أخرى لا نقل شأنها عنها، منعنا من الخوض فيها ضيق الوقت.

³ - سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج 1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة 1، الجزائر، 1993، ص 256-257

ومنطقة الشلف لم تكن لتشد عن باقي جهات القطر، حيث كانت عامرة بالمدارس القرآنية والزوايا طيلة العهد العثماني، وواصلت على نفس النسق خلال فترة الاحتلال الفرنسي، وقد تخرج منها وفود العلماء والطلبة الذين شكلوا المرجعية الدينية بالنسبة لعامة الناس في زمانهم¹.

الإشكالية:

- و بناء على ما تقدم نجد أنفسنا أمام إشكالات ملحة تتمثل في:
- ما علاقة التعليم العربي الإسلامي بالثورة في منطقة الشلف؟
- ما هو دور طلبة وشيوخ التعليم العربي الإسلامي في الثورة؟
- رد فعل السلطات الاستعمارية تجاه النشاط الثوري لمدارس التعليم العربي؟

التعليم العربي الإسلامي في منطقة الشلف قبل اندلاع الثورة:

لقد اجتهد أهل الشلف في إنشاء المدارس القرآنية والزوايا وانفقوا عليها الأموال الطائلة من أجل استمرارها في أداء رسالتها التعليمية، وتعد منطقة الشلف من أكثر المناطق اهتماما بالتعليم القرآني²، فلم يكن يخلو حي أو قرية من دور التعليم (مدارس قرآنية، زوايا) وفي هذا الصدد يقول الشيخ عبد الرحمن شيبان رحمه الله أحد أعضاء جمعية العلماء المسلمين: "تعتبر منطقة الشلف مطمورة حفظة القرآن الكريم"⁽³⁾

انحصر التعليم وبأسلوبه التقليدي في مناطق جانبية ريفية من المنطقة بعيدة عن صخب المدينة، وقاد هذه الحركة العلمية الكثير من المدارس والزوايا العتيقة، تلك المدارس التي أخرجت أفواجا كثيرة من طلبة العلم

¹ - تركي راجح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 1، الجزائر، 1981، ص 235-236

² - المدني أحمد توفيق، جغرافية القطر الجزائري، دار المعارف بالقاهرة، ط3، سنة 1963، ص 138

³ - خير إبراهيم، محاضرة بعنوان "إطلالة على المدارس القرآنية في عهدها التقليدي" أقيمت أمام السلك الديني بالبلدية 25 مارس 2005

النجباء والعلماء المتميزين، والذين أصبح لهم صيت واسع وشهرة كبيرة يقصدهم طلاب العلم من سائر الأقطار، لهذا نجد الشيخ أحمد حماني يشيد بعلماء المنطقة في العهد الاستعماري قائلا: "وقد اشتهر الشلف بالمعاهد، والتزام أصحابها بإتقان علمهم، واستظهارهم للقرآن، ولمتون كتب التوحيد، والفقه، وشهر عنهم أنهم يحفظون متن المختصر والرسالة كما يحفظون القرآن، ومنهم من ختم دراسة المختصر مرارا، وكانوا يرتحلون في طلب العلم وينهلون من معاهده في الشرق والغرب، ويصلون في المغرب إلى القرويين، وإلى الزيتونة بتونس، وقد يتجاوزون إلى القاهرة، وكل منهم لا يرجو أن يحقق منزلة دنيوية من علمه بل العكس، لأنهم يعلمون أن الإدارة الاستعمارية لا تتوقع من غرضهم نفعا لها، ولهذا كانت تناصبهم العداوة والحرب النفسية والتضييق عليهم في معاشهم ومراقبتهم"¹

لقد كانت تقاليد التعليم القرآني في منطقة الشلف لا تسمح بدراسة علوم الفقه واللغة وكذا العقيدة والتبحر في سائر العلوم إلا لمن أجاد حفظ القرآن الكريم برسومه وأحكامه على يد شيخ حافظ، هذا فضلا على أن سخاء أهل الشلف يعد أحد العوامل الهامة في استقرار طلبة العلم في المدارس القرآنية، ذلك أن جميع العائلات الموجودة في الحي الذي به مدرسة قرآنية يؤمها طلبة مسافرون تساهم برغيف خبز لفائدتهم، كما يتم استدعاؤهم لحضور الولائم مع الشيخ لخطبة زواج أوفاة أحد الأقارب²

كان تعليم الطلبة يتم بطريقة مجانية إذ أن الشيخ لم يكن يتقاضى أجره يومية من أولياء الطلبة، وما يقدم للشيخ من هبات لا يعدو أن يكون تطوعا علاوة على أن بعض المحسنين يقدمون للشيخ هبات عينية تمثل في القمح والشعير وبعض البقوليات التي يتمعش منها مع أسرته.

¹ حماني (أحمد)، وفاة العلامة الشيخ الجيلالي الفارسي رزء عظيم، يومية المساء، يوم 30 جوان 1994.

² - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي،

وهكذا فإذا كان الشيخ يوفر المأوى لطلبة العلم بالمدرسة القرآنية أو الزاوية فإن أهل الحي والمناطق المجاورة يوفر لهم الطعام.

طرائق التدريس:

بيداغوجيا نجد أن "اللوحة"¹ من الأدوات الشائعة الاستعمال، وهي أداة تخص كل طالب حيث يكتب له الشيخ الحروف الأبجدية إلى غاية تمكنه من حفظها لينتقل بعدها إلى قصار السور ولا يقرن مع ذلك شيء آخر سوى الحفظ حيث ينقطع لحفظ القرآن الكريم إلى غاية الانتهاء منه² كما أننا نجد هناك تفاوتاً كبيراً في المعدل العمري للطلبة إذ نجد أن هناك من الطلبة من تجاوز سنهم 30 سنة بينما البعض الآخر لم يتجاوز 15 سنة من عمره، ومرد ذلك إلى أن دخول الطلبة إلى الجامع أو الزاوية لا يقتصر بسن معين، ولا يتقيد بفصل محدد من فصول السنة الدراسية بل لكل طالب الحق في الالتحاق بالمدرسة القرآنية أو الزاوية متى شاء وله أن يتحول إلى أخرى يرغب فيها متى أراد ذلك ولا يجد أي صعوبة أو معوق يذكر يمنعه في رحلته العلمية.

ولقد غلب على طلبة المدارس القرآنية والزوايا كثرة التنقل والترحال بين المراكز التعليمية (مدارس قرآنية، زوايا) إلى غاية الانتهاء من ختم القرآن الكريم بشكل كامل.

ثم بعد ذلك ينطلق الطلبة الذين لهم رغبة في إتمام دراستهم في رحلة شاقة بحثاً عن شيخ فقيه يمكنهم من دراسة الفقه المالكي³

¹ - هذا النظام على توافقه يسمح ب بروز القدرات الفردية لكل طالب، فالطالب الذي لديه قابلية للحفظ يتمكن في وقت قصير من حفظ أجزاء هامة من القرآن الكريم، بيد أن الطالب المحدود يستغرق وقت أطول مع كل سورة لكي يتمكن من حفظها.

² - غلام الله أبو عبد الله، نظرة على التعليم الأهلي في سهل الشلف خلال النصف الأول من القرن 20، مقال بمجلة اللغة العربية، عدد ممتاز ديسمبر 2004 ص 33-34

³ - غلام الله أبو عبد الله، نظرة على التعليم الأهلي في سهل الشلف خلال النصف الأول من القرن 20، مقال بمجلة اللغة العربية، عدد ممتاز ديسمبر 2004 ص 33-34

لذا ندع شيخ مدرسة العطااف الفقهية وهو الجيلالي بن عبد الحكم يتحدث عن نفسه: "ولما فزت بالإذن من عند الشيخ بن شرقي في سنة 1912 ذهبت إلى مسقط راسي بالعطااف وأسست مدرسة فقهية وشرعت في التدريس، ونظمت الدروس على النحو التالي فجعلت من يوم السبت إلى يوم الأربعاء أياما مخصصة للفقه، ويوم الخميس خصصته لتدريس الفنون كالمنطق والبلاغة والنحو ما عدا فصل الصيف فقد جعلت ذلك لتدريس ألفية ابن مالك من شهر مايو إلى أواخر الخريف ثم أعود بعدها إلى الفقه..."¹

التعليم العربي الإسلامي والحركة الوطنية:

وخلال خمسينيات القرن الماضي استقبلت المدارس القرآنية والزوايا وفود الزعماء السياسيين من الحركة الوطنية التي كان شيوخها منخرطين إما في جمعية العلماء المسلمين أو في حزب الشعب الجزائري (حركة الانتصار للحريات الديمقراطية) وقليل منهم من لم تكن له صلة بأي تنظيم.

كما نسجت علاقة وطيدة بين بعض طلبة المدارس القرآنية وبعض أعضاء حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر "المدرسة القرآنية ابن الوليد" التي كان يديرها الشيخ بواعلي محمد المعروف بمحمد بن بهلول المجاجي، إذ كانت تلك المدرسة تستقطب الكثير من الزعماء الوطنيين وذلك لموقعها الاستراتيجي البعيد عن أعين الإدارة الاستعمارية وإذناهم، وسمعة مديرها (شيخها)² حيث كان بيته الملاصق

¹ - عتبة الجيلالي بن عبد الحكم، المرأة الحليّة ومعرفة أولاد سيدي يحيى بن صفية والتعريف بمشاهير العلماء ورجال الصوفية، طبع سنة 1955 بتلمسان ص 14.15.16.

2- الشيخ بواعلي محمد أهلول المجاجي: من مواليد 1910 بمجاجة ينحدر من أسرة ذات علم وصلاح تتلمذ على يد الشيخ المتصوف شاوي أحمد بن قدور المجاجي، نظرا لكونه يسكن منطقة بعيدة عن أعين المعمرين أسس مدرسة قرآنية واشترى لها الكتب من حسابه الخاص، وكان يغدق على طلبة العلم الذين وفدوا عليه من ماله الخاص دون مساعدة أهل الحي، وقد فكر في وقت مبكر مقاطعة السلع الفرنسية، يعد بيته ومدرسته أول مركز عسكري في الثورة التحريرية، حمل إليه الضابط "مايو" شحنة أسلحة من شرشال سنة 1956، التحق من مدرسته 17 طالب كلهم شهداء، أما هو فقد استشهد يوم 1957/04/17، انظر جريدة شباب العدد 5، 31 مارس 1999.

للمدرسة ملتقى القادة الوطنيين أمثال محمد بوضياف، رابح بيطاط وبن يوسف بن خدة، وقد ساهمت هذه الاتصالات في وعي شرائح عريضة من طلبة المدارس القرآنية، وخلال منتصف الأربعينيات ومطلع الخمسينيات خرج عشرات الطلبة من شلف وكانت وجهتهم إما الزيتونة أو القرويين بغية الاستزادة من العلم، وقد وقفوا في البلدان التي حلوا بها على الحراك السياسي والنهضة العلمية التي كان لها أعظم الأثر في تكوين وبلورة الوعي الوطني والسياسي لديهم، وعند عودتهم كانت المدارس القرآنية والزوايا بالمنطقة الوعاء الذي احتضن أفكارهم والمركز الذي جسد تطلعاتهم¹.

اندلاع الثورة المسلحة والتحاق الطلبة بها:

نتيجة للآثار الناجمة عن الزلزال الذي ضرب منطقة شلف وبالأخص مدينة ORLANSVILLE في شهر سبتمبر 1954 والذي أثر على النسيج العمراني والبشري، حيث أصبح سكان المنطقة بلا مأوى، وفي تلك الأثناء اندلعت الثورة المسلحة التي لم تتمكن منطقة الشلف من احتضانها منذ أول وهلة للجراح العميقة التي تسبب فيها الزلزال، وبالتالي لم تواكب الحدث الذي كانت الجزائر مسرحا له من الغرب إلى الشرق، هذا من جهة ومن جهة أخرى وجود أغلب قيادي المنطقة رهن الاعتقال وعلى رأسهم الجيلالي بونعامة²، هذا إلى جانب وجود الحركة المصالية بالمنطقة وجيش قويس³

¹ كرمي (عبد الرحمن)، مذكرات النقيب سي مراد، تحرير ج. حنفي، ط1، دار الأمة، 2005، ص 10 و16

² الجيلالي بونعامة: من مواليد 1926/04/16 بقلب الونشريس (مدينة موليار) برج بونعامة حاليا، التحق بمنجم بوقايد لإعالة أسرته الفقيرة ثم ما لبث أن انخرط في صفوف حزب الشعب ثم حركة الانتصار، ثم أصبح عضوا بارزا في المنظمة الخاصة، اعتقل في نوفمبر 1955 ثم حول للإقامة الجبرية بوهراو وفي نوفمبر 1957 أصبح قائدا للمنطقة الثالثة وفي سنة 1958 عين بمجلس الولاية الرابعة كرائد عسكري ثم قائدا للولاية الرابعة، استشهد في 8 أوت 1961، انظر شرقي عاشور.

³ قويس: بلحاج جيلالي عبد القادر، زعيم الحركة المناهضة للثورة، عضو بارز في المنظمة الخاصة، احتضن بيته اجتماع زدين 1949، واندلاع الثورة شكل مليشيات مناهضة لها انتشرت قواته جنوب شلف إلى غاية الونشريس، وقد عرقلت حركة الاتصال بين الظهرة والونشريس، قتل سنة 1958. انظر كتاب لحضر بورقعة شاهد على اغتيال الثورة.

لهذه الأسباب وغيرها تأخر انطلاق الثورة في منطقة الشلف، لكن باندلاعها خريف 1956 كان من روادها طلبة المدارس القرآنية والزوايا التي كانت مراكز لجيش التحرير خلال الثورة التحريرية، فقبل اندلاع الثورة ظل بونعامة يرص الصفوف ويلتقي القادة وينظم الاجتماعات داخل المدارس القرآنية ليلاً، ونخص بالذكر مدارس أعالي مجاجة، منها مدرسة ابن الوليد، المدرسة اليوسفية، مدرسة أولاد فارس، زاوية الشيخ بوعليلي بن عبد الله بأم الدروع وغيرها كثير.

وقد يتساءل المرء عن السر الذي جعل قادة الثورة في المنطقة يدشنون سلسلة اتصالات مع شيوخ المدارس القرآنية والزوايا ولعل مرد ذلك إلى العوامل الآتية:

- كون أولئك الشيوخ كانوا محل ثقة عند العامة وأمرهم مطاع حيث كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية مميزة ولا يجرأ أحد أن يتناول عليهم بل يسعى الجميع لإرضائهم وكسب ودهم، وكانوا يمثلون المرجعية ودور القضاة في الأحياء التي كانوا يزاولون بها تعليمهم¹.

- وجود العنصر البشري في تلك المدارس والمتمثل في الطلبة الذين كان البعض منهم متأثراً بالمناخ السياسي الذي كانت تعج به الساحة الوطنية آنذاك، وقد مثلوا دوراً طلائعياً في بداية الثورة خاصة في مجال الاتصال لأن أمرهم لم يكن قد انكشف بعد.

- الإطار المكاني للمدارس القرآنية والزوايا بالمنطقة والتي كانت بمنأى عن أعين السلطات الاستعمارية وأذنانها الذين لم يتمكنوا من مواكبة التطورات التي كانت تحصل بها علاوة على أنها تقع ضمن مناطق لا يوجد بها معمرين والذين كانوا يراقبون حركات وسكنات الجزائريين.

و مجمل القول أن المؤسسات التعليمية للتعليم الحر عشية الثورة وخلال الأيام الأولى منها لم يكن يعلم أحد بالدور الذي اضطلعت به، فقد

¹ غلام الله أبو عبد الله، نفس المرجع السابق، ص 38-39

شكلت مراكز تخطيط للعمليات وانطلاق الفدائيين وشن الهجمات، والتواصل مع المناطق النائية في الشمال أو الجنوب. ولما أدركت فرنسا خطور الوضع الذي تمثله المدارس القرآنية شنت عليها أعتي الهجمات. و فيما يلي قوافل الطلبة والشيخ الذين التحقوا بالثورة غداة اندلاعها بمنطقة الشلف:

مدرسة أولاد فارس التي كان يديرها الشيخ بوعيسى محمد المدعو عبد الحميد¹:

الاسم واللقب	تاريخ ومكان الميلاد	تاريخ الالتحاق بالثورة	تاريخ الاستشهاد
لخضر بوسورة	1924/11/28 بأولاد فارس	عضو بجيش التحرير 1956	1961
بن علي بونوة	1931/03/10 بأولاد فارس	عضو بجيش التحرير 1956	1958
صالح سعد السعدي	1931 بالعطاف	عضو بجيش التحرير 1956	1959
عبد الله سعد السعدي	1928 بالعطاف	عضو بجيش التحرير 1956	1960
محمد بوعيسى	1941/07/09 بأولاد فارس	عضو بجيش التحرير 1957	1959
علي طيب أحمد	1936/06/05 بسنجاس	عضو بجيش التحرير 1956	1959
بن عمر نجاح	من الونشريس	عضو بجيش التحرير 1956	/

زاوية الشيخ بوعلي بن عبد الله بقعة الحمام بأمر الدروع²:

الاسم واللقب	تاريخ ومكان الميلاد	تاريخ الالتحاق بالثورة	تاريخ الاستشهاد
جلول بورويس	1926 بأمر الدروع	عضو بجيش التحرير 1956	1957
بن علي خالدي	1929	عضو بجيش التحرير 1956	1960
عبد القادر دهنان	1917	عضو بجيش التحرير 1955	1957
هني رحيم	1937	عضو بجيش التحرير 1956	1959

¹ استقيننا هذه المعلومات المتعلقة بالتحاق الطلبة بالثورة وشيخهم من أحد طلبة الشيخ يمكن كتب له النجاة وهو غزيل عمار المولود سنة 1935، أجرينا معه الحوار بتاريخ 2005/08/12 وكذلك نجل الشيخ خالد بوعيسى.

² استقيننا هذه المعلومات من الملتقى الذي أقيم تخليدا لماثر الشيخ بوعلي ودوره في المنطقة يوم 1987/7/6 بأمر الدروع، وتحققت من ذلك بوساطة السجل الذهبي لشهداء الشلف.

1957	عضو بجيش التحرير 1956	1936	بلحاج بوعلي
1961	عضو بجيش التحرير 1957	1936	هني نجاري
1961	عضو بجيش التحرير 1956	1933	الجيلالي نجاري

مدرسة ابن الوليد بأعالي مجاجة والتي كان يديرها الشيخ بواعلي محمد المعروف بأبهلول المجاجي¹:

الاسم واللقب	تاريخ ومكان الميلاد	تاريخ الالتحاق بالثورة	تاريخ الاستشهاد
محمد بواعلي	/	عضو بجيش التحرير 1956	1959
عبد المالك بواعلي	1940	عضو بجيش التحرير 1956	1957
الجيلالي عيساوي	1931	عضو بجيش التحرير 1956	1957
عبد الرحمن زروقي	1931	عضو بجيش التحرير 1956	1957
الطاهر شاوي	1933	عضو بجيش التحرير 1956	1959
علي فلاق	1932	عضو بجيش التحرير 1956	1957

رد فعل السلطات الاستعمارية على النشاط الثوري لمدارس التعليم الحر:

ركزت السلطات الاستعمارية جهودها منذ الوهلة الأولى لاندلاع الثورة من أجل إخماد نور الثورة في مهدها وأخذت تترصد الخلايا النشطة في المداشر والأحياء التي تقوم بدور تنظيمي.

و قد استهدفت الشيوخ في بادئ الأمر لكونهم يشكلون همزة وصل بين عامة الشعب ومسؤولي جبهة وجيش التحرير، وبناء عليه فقد بات الشيوخ الهدف الأول للسياسة القمعية من أجل احتواء الثورة والنيل من رموزها، حيث ن سجل في منطقة جغرافية ضيقة استشهاد 27 شيخا وفقها منذ

¹ تمكنا من معرفه هذه القائمة الاسمية الخاصة بشهداء المدرسة بواسطة الطالب جيلالي بوزينة يوم 2005/01/12

انطلاق الثورة إلى غاية 1962، وإذا لم يكن بمقدور الشيوخ الالتحاق بالجبال، وذلك لعامل السن، فإنه على العكس من ذلك فقد استفادت الثورة من خدمات الطلبة الذين انضموا تحت لواء الثورة وكانت عائلاتهم قد دفعت الثمن في عقاب جماعي شنته القوات الفرنسية، ثم ما لبثت إن التفتت إلى المراكز التعليمية وسوتها بالأرض والتي أصبحت اثر بعد عين، كما أتت على تراث تلك المدارس من كتب ومخطوطات ووثائق نادرة بالحرق والنهب والمصادرة، مثل ما حصل للمدرسة اليوسفية سنة 1957، وزاوية الشيخ بوعليلي بن عبد الله في جويلية 1957، ومدرسة ابن الوليد التي أحرقت وأبيدت بعد استشهاد شيخها¹.

¹ خالدي بعري، دور طلبة الزوايا والمدارس القرآنية خلال الثورة بمنطقة شلف، مذكرة ماجستير مخطوطة، سنة 2007، بمعهد تاريخ بوزريعة، ص 79-80